

## نص سيجموند فرويد

### البنية النفسية الثلاثية للشخصية

إن الأنا مضطر لأن يخدم ثلاثة من السادة الأشداء، وهو يبذل أقصى جهده للتوفيق بين مطالبهم. وهي في الغالب مطالب متعارضة والتوفيق بينها مهمة عسيرة إن لم تكن أقرب إلى أن تكون مستحيلة. فليس من الغريب إذن أن يفشل الأنا في أغلب الحالات في مهمة التوفيق هاته. وهؤلاء المستبدون الثلاثة هم:

(١) العالم الخارجي

(٢) والأنا الأعلى

(٣) والهو.

ونحن عندما نتابع المجهودات التي يقوم بها ( الأنا ) بقصد الاستجابة لهذين النوعين من المطالب في وقت واحد، أي بطاعة أوامرهما في نفس الوقت، فإننا لن نأسف إذا ما كنا قد شخصنا هذا الأنا وقدمناه كحالة خاصة. فهو يحس بأنه معرض لثلاثة ضغوط ومهدد من طرف ثلاثة أنواع من الأخطار يكون رد فعله عليها، عندما تشتد معاناته منها، هو توليد نوع من القلق. فهو، من حيث إنه نفسه نشأ نتيجة التجارب الإدراكية، يتجه إلى أن يتمثل متطلبات العالم الخارجي لكنه يود أن يكون بنفس الوقت خادما للهو، ومتصالحا معه و مع حاجاته المستمرة للإشباع ... إن الأنا، في مجهوده من أجل التوسط بين اللهو والواقع، مضطر دوما إلى أن يموه على أوامر اللاشعور بتبريرات متعددة، وإلى التخفيف من صراع الهو مع الواقع، عن طريق نوع من التمويه الدبلوماسي والرياء والتظاهر بأنه يأخذ الواقع بعين الاعتبار ويراعيه، حتى ولو ظل الهو جموحا ومتصلبا في مطالبه الملحة على الإشباع. ومن زاوية أخرى، فالأنا هو محط رصد من طرف الأنا الأعلى الذي يفرض عليه باستمرار المعايير التي يتعين عليه اتباعها في سلوكه دون أن تهمة العوائق و الصعوبات الآتية من الهو ومن العالم الخارجي . وإذا ما عصى الأنا أوامر الأنا الأعلى وتعليماته فإن هذا الأخير يعاقبه بأن يسلط عليه مشاعر التوتر والقلق التي يشكلها لديه الإحساس بالدونية أو بالذنب.

وهكذا يصارع الأنا وهو محاصر بين ضغط الأنا الأعلى ومطالب الهو وقوة الواقع ، من أجل ينجز مهمته في إحداث نوع من التوافق والانسجام بين هذه القوى والتأثيرات المتفاعلة داخله والمؤثرة عليه من الخارج.

(هذا النص من كتاب سيجموند فرويد. المؤتمرات الجديدة ١٩٣٢ تراد. الأب. زيتلين باريس S. Freud : Nouvelles conférences 1932 trad. Fr. Zeitlin Paris (١٩٣٦ 1936)

#### ١- التعريف بالنص:

يندرج النص في إطار الاهتمامات المختلفة لنظرية التحليل النفسي مع عالم النفس النمساوي. فرويد الذي حاول دراسة شخصية الإنسان بصورة مغايرة تعتمد طابع أكثر دقة وعملية فكيف تعامل فرويد مع هذا الموضوع؟

#### ٢- التعريف بفيلسوف النص

ولد سيجموند فرويد في فرايبورج وهو يهودي نمساوي ارتبط اسمه بتأسيس التحليل النفسي تلقى تعليمه في مدينة فيينا في علم الأعصاب وتحت تأثير الطبيب الفرنسي "شاركو" والطبيب "بروير" اهتم بالجوانب النفسية للإنسان وطور أبحاثهما من أهم مؤلفات فرويد:

- محاضرات تمهيدية في التحليل النفسي سنة ١٩١٦.

- تفسير الأحلام ١٨٩٩ وهذا من أشهر الكتب.

- الطوطم والطابو مقالات في علم النفس الجمعي.

ذاعت آراء فرويد بعد هجرته إلى إنجلترا مع بداية الحرب العالمية الثانية بعدما ضيقت النازية الخناق على جل العلماء والفلاسفة اليهود خلال هذه المرحلة، لعل أهم نظريات فرويد على الإطلاق نظرية

اللاشعور التي فسر بها السلوك البشري غير السوي، فعوض أن يعتبر هذا السلوك لا معنى له اتجه نحو البحث في الظروف المنتجة له وقال انه سلوك يعود إلى التجربة الجنسية لمرحلة الطفولة، من هذا المنظور اقترح فرويد مفهوم اللاشعور كفرضية لا يمكن بدونها فهم الصلة بين مرحلتي الطفولة والبلوغ. وبعد رحلة دامت حوالي ٨٣ سنة توفي فرويد سنة ١٩٣٩.

### ٣- الهدف من النص

في هذا النص يحاول فرويد طرح إشكال عام كالتالي:

- (١) ماهي العناصر الأساسية التي تتبني عليها الشخصية؟
- (٢) وما هي الصيغة العامة التي من خلالها يمكن تحقيق التوازن؟

### ٤- الهدف من النص

يرى فرويد في تصوره أن شخصية الإنسان هي عبارة عن صراع دائم بين مجموعة من الغرائز (اللهو) والمثل الأخلاقية (الأنا الأعلى) وأيضا ضغوط الواقع الاجتماعي، لذلك فالأنا هو نتاج للتوازن والتوفيق بين هذه القوى مثلما هو أداة تحقيق هذا التوازن والتوفيق، لذلك فوحدة الشخص وحدة دينامية عسيرة ولا متناهية التحقق.

### ٥- بعض المفاهيم الواردة في النص

اعتمد فرويد على مفاهيم أساسية أهمها: \* الأنا \* الأنا الأعلى. \* اللهو. \* اللاشعور.

### ٦- تفسير النص

- يرى فرويد أن الإنسان دائم الصراع بين عناصر ثلاث ليحقق التوازن ومحاولة التوفيق بينهما.
- التأكيد على أن هذا الصراع في غالب الأحيان ما يكون محاصر بين ضغط الأنا الأعلى من جهة ومطالب اللهو والواقع من جهة ثانية.

## ٧- قيمة النص:

إن قيمة النص تكمن بالدرجة الأولى في كونه يقدم لنا تصورا تفسيريا لمجموعة من العناصر المشكلة لشخصية الفرد، وبالتالي فالرهان لدى فرويد كان هو محاولة وضع تفسير دقيق لكيفية حدوث هذا التوازن.

## ٨- النتائج التي توصلنا إليها

إن أهم ما يمكن أن نحتفظ به من خلال نص سيجموند فرويد هو عنصرين أساسيين:

(١) لا يمكن أن تكون الشخصية سوية بالشكل المطلوب إلا حينما تحاول التوفيق بين أبعاد الشخصية الثلاث.

(٢) ثم أن هذه العلاقة حسب فرويد هي علاقة صراع بالدرجة الأولى".<sup>(١)</sup>

## نص فرويد حول الدين

الدين عصاب جماعي ... وهكذا فأنا في تناقض معكم عندما تقولون إن الإنسان لا يستطيع بصفة مطلقة أن يستغني عن العزاء الذي يقدمه له الوهم الديني، وإنه بدونه لا يستطيع تحمل ثقل الحياة والواقع الفظ. نعم، ذلك صحيح بالنسبة لرجل طبعتم في ذهنه منذ الطفولة هذا السم الحلو أو السم الحلو والمر. لكن ما شأن الآخر، ذلك الذي تربى في الاعتدال والرصانة؟ ربّما لن يكون، ذلك الذي لا يعاني من أيّ عصاب، في حاجة إلى السكر حتى ينسى ذلك. دون شك إذن،

سيجد هذا الرجل نفسه في وضعيّة صعبة، سيجد نفسه مجبرا على الاعتراف لنفسه بكل ضيق، بضآلته في مجموع الكون، لن يكون كما كان مركز الخلق، موضوع الاهتمام الحنون لعناية إلهية مجانية. سيجد نفسه في وضعيّة طفل غادر بيت الوالدين، أين كان يحسّ نفسه في رغد وأين كان يشعر بالدفء. ولكن أليست الصبائية مرحلة مُقدّر تجاوزها؟ فالإنسان لا يستطيع أن يبقى طفلا بصفة دائمة، إذ يجب عليه أن يغامر أخيرا في كون عدواني. ويمكن أن نسمي ذلك «التربية في اتجاه الواقع» ولن أكون في حاجة لأقول لكم أن هدفي الوحيد من كتابة هذه الدراسة هو أن ألفت الانتباه إلى الضرورة التي تفرض تحقيق هذا التطور.

## تحليل النص

عندما يتعلق الأمر بالمقدس ( الناحية الدينية ) يمتنع الإنسان العامي عن الحديث عنه بلغة خارج صيرورة التقديس إذ هو لا يقبل مناقشة الفكر الديني، بل انه يفعل وتكون ردوده عنيفة إزاء كل تفكير نقدي يسعى إلى فهم المقدس فهما موضوعيا. وهذا السلوك في التعامل غير غريب على الإنسان العامي إذ أن المقدس هو قبل كل شيء تجربة انفعالية تتجذر في اليومي. لكن المفكرين العقلانيين لا يجدون حرجا في البحث في أسس هذا المقدس وفي الوظائف التي يضطلع بها، بل إن البعض منهم على غرار فرويد في هذا النص المقتطف من " مستقبل وهم " يذهب إلى درجة التشكيك في الرؤية الدينية،

حيث يقر فرويد أن الدين عصاب جماعي على الإنسان أن يشفى منه. فما هي وظيفة الدين إذن؟ هل انه رؤية تعبر عن واقع مرضي يجب التخلص منه أم انه منظومة رمزية تمثل ضربا من المعانقة

الروحانية للعالم؟ ثم هل يجب فعلا التحرر من الدين أم أنه يضطلع بوظيفة تجعله أحد المنظومات المشكلة للإنساني بحيث لا نستطيع تجاوزه؟ يتعلق الأمر بالنسبة لفرويد بالتخلي عن القلق الطفولي وأن يتربى الإنسان في اتجاه الواقع لكي يصبح سيد قدره. لذلك يعلن فرويد منذ بداية النص انه يناقض بصرامة أطروحة تقضي بان الإنسان لا يستطيع العيش دون العزاء الذي يقدمه الدين لآلام الوجود، فالدين حسب فرويد هو اعتقاد وجداني ناتج عن الرغبات الإنسانية ويرتبط بالإيمان بالألوهية. والاعتقاد في الله، حسب فرويد، يتأسس ضد الألم،

إذ أن الإنسان يتعلق بوهم، باعتقاد ناتج عن الرغبة، اعتقادا يؤسس له نسقا سيكولوجيا حاميا. فمن خلال الدين يتشبث الإنسان بالقلق بأب حازم، قوي وقادر. ذلك أن فرويد يصف الحياة بالثقل، فالواقع فظ والإنسان يجد نفسه في هذا العالم متروكا لوحده بفضاظة، وحالة القلق هذه تميز مرحلة الطفولة التي تمثل بمحيطها مناخا خصبا لزرع الخوف فينا. هذا يعني أن فرويد يقر بان الظروف التي يوجد فيها الإنسان والتي يفرضها عليه العالم الخارجي هي ظروف صعبة، ودون دين لا يستطيع الإنسان أن يتحمل هذا العالم الخارجي العدائي والصعب، تلك هي على الأقل الأطروحة التي يتبناها هنا مناقضي فرويد، فالدين يواسي، يعزي ويحمي، ذلك أن صورة أب قوي وقادر تبدد مخاوف الطفل وقلقه. غير أن الدين بالنسبة لفرويد هو سم، مادة قادرة على تعطيل أو حتى قطع الوظائف الحيوية للجهاز العضوي. فالدين خطير، سم حلو ومر في نفس الوقت فهو يمثل مادة غامضة تظمننا وتعكرنا، إذ يبدو كالوصفة السحرية. ومن اعتاد على هذا السم المعكر ذي الفضائل الغامضة والمتناقضة في طفولته لا يستطيع أبدا التخلي عنه لأنه يمكنه من الإفلات من الإحساس المमित بالقلق الطفولي.

وبلغة فرويد من اعتاد على هذا السم لن يشفى أبداً من الطفولة وما طبعته فيه. ولكن على خلاف ذلك الذي يكون في حاجة لكي يعيش، إلى سم أو مهدئا، اكسيرا لينعشه ولكن يحطمه في نفس الوقت، يرسم فرويد صورة ذلك الذي تربى في الاعتدال والرصانة. أن نتربى في الاعتدال والرصانة هو أن نتربى في حزن نوع من التمتع دون كحول وباتزان، نوع من صفاء الذهن وشفاء الجسد. فما هو حال الرجل الذي لم يعيش طفولة في الاعتقادات، ذلك الذي لا يعاني من أي عصاب والذي لم يكن مثقلا بأوهام محبذة وخطيرة؟

انه ليس في حاجة إلى السكر يقول فرويد، حالة اعتدال اصطناعية ينتجها خمرا أو سما، ليعيش ويقتل عُصابه، حتما إن هذا الرجل الذي تربي دون خمر، الذي تربي في الاعتدال والرصانة وفي الواقع بعيدا عن كل وهم، سيكون مجبرا على الاعتراف بقلقة، بإحساسه بالوحدة وإحساسه بأنه متروك وبالتالي بضعفه في الوجود، سيعترف بأنه كائن إلى الموت وبضآلته في خضمّ عالم لا متناهي، سيكون مجبرا على الاعتراف بكونه "عدم بالنسبة إلى اللامتناهي" على حد عبارة "باسكال". فدون أبٍ قويّ، أي دون إله لن يشعر هذا الرجل بكونه محميا من قبل العناية الإلهية، هذا الفعل الحكيم الذي يدبّر العالم ومجمل الخلق سيكون بمثابة الطفل الذي غادر بيت الوالدين لأن الدين والإله يجسدان حسب "فرويد" الأب، فما الله إن لم يكن أبا محولا بواسطة التصعيد؟ دون دين يفرغ الإنسان من قوة أبوية أولية وحامية وهذه الطريق وعة فالإنسان دون مقدّس يجد نفسه في وضعية صعبة، فريسة القلق والحيرة، خبزنا اليومي وقدرنا في هذا العالم.

لذلك يرى فرويد أنه على الإنسان أن يفلت من الوهم الديني وأن يصبح كهلا حقيقيا فلا يجب أن يعوّض مأساة الظروف الإنسانية بتصالح مع الواقع والوجود منجز في الخيال. ذلك أنّ مرحلة الصبائية يجب تجاوزها، يجب أن نتجاوز حالة الفرد الذي هو في سنّ الكهولة وله خصائص فيزيولوجية أو نفسية ترتبط بمرحلة الطفولة، لذلك يجب استبعاد الصورة القوية والساخرة لألوهية حامية، والإنسان عليه أن يدخل في العالم الواقعي في كون عدواني لأنه محروم من قوة الولي لا صديق له ولا عناية إلهية. أن يكون كهلا هو أن يفلت الإنسان من الأوهام التي ترتبط بضرورة وجدانية إذ يتعلق الأمر بالنسبة لفرويد بإنتاج تربية في اتجاه الواقع،

خلق مسار نظور به عند الإنسان قدرات أو خصائص تراعي الواقع، تراعي الظروف التي يفرضها العالم الخارجي. هاهنا يندرج المشروع الفرويدي الذي يقتضي تطهير الإنسانية من الوهم الديني لذلك يجب استبعاد صبائية الاعتقاد في العناية الإلهية وتربية البشر في اتجاه الحقيقة، في اتجاه الواقع، في اتجاه الصعب والعقلاني. وعندما يعلن فرويد أنه يهدف إلى أن يبيّن الضرورة في تجاوز الإنسان لصبائية لا يجعل من نفسه فقط طبييا معالجا بل وأيضا مربيا للإنسانية. وهكذا فإن فرويد يقوم في هذا النص بنوع من التشخيص التحليلي للعقل الديني وهو يلحّ خاصة على الضيق الذي تتجذر فيه الحاجة إلى الديني، إذ يجذّر فرويد الدين في مستوى نفسي فالإحساس الديني والدين بأسره يتأتى عن

وهم وعن رغبات لا واعية للإنسان ففي مقابل صعوبة الحياة، في مقابل الألم وخاصة في مقابل الموت ينحت الإنسان اعتقاداً معزياً يمكنه من الحياة. ومزية فرويد تتمثل في كونه كشف عن هذا البعد السيكولوجي للدين فالإنسان يعبر عن حاجته للحماية في كامل ردهات حياته ومن هنا تنتج فكرة الإله، العقدة الأبوية والحاجة إلى الحماية تمثل المبادئ النفسية التي تمكننا من فهم ماهية الدين الذي يضطلع بوظيفة تطيف قلق الإنسان فيعده بالبعث وبالجزاء وبأوهام أخرى معزّية،

وباختصار إن الدين لا يتجذّر في الخطأ ولكن في وهم وجداني عاطفي إذ هو وهم فاعل بالنسبة لمن تربى في غير اعتدال وورصانة، هو عصاب على الإنسانية أن تشفى منه. قطعاً أن فلسفة الأنوار سبقت فرويد في هجومها على الدين ذلك هو شأن "فيورباخ" Ludwig Fuerbach، "فيورباخ" في كتابه "ماهية المسيحية" (١٨٤١) يبيّن أن الدين هو "داخلية الإنسان المسقطّة في الخارج" ففي الإله يسقط الإنسان ماهيته الحقيقية و بالتالي في كلّ مرّة نثري ماهية الله نفقر الإنسان و الدين في هذا المنظور ليس في نهاية المطاف إلاّ علاقة الإنسان بذاته، لذلك على الإنسان حسب "فيورباخ" أن يقلب الدين وأن يستعيد ماهيته المغترية وهو تقريبا ما يقوله "فرويد" فالإنسان عليه أن يصبح راشداً. "ماركس" أيضاً غير بعيد على فرويد ينفي كلّ وظيفة إيجابية عن الدين ويعتبره تعبيراً عن الأيديولوجيا السائدة التي تسعى إلى تكريس الوعي الزائف للمحافظة على مصالحها، فالدين "أفيون"، "مخدّر"، يمنع الطبقة الكادحة من الوعي بواقعها المزرى والثورة عليه لذلك لا بدّ من تحطيم الوعي الديني لتحرير الإنسان من كل أصناف الاغتراب والتتميط. لكن عندما نتفحص الأمر ونأمل حضارتنا المعاصرة نتبيّن أن تجاوز الرؤية الدينية ليس أمراً هينا فحضارتنا اليوم تتسم بعودة الديني وحتى في البلدان الغربية أين يبدو الدين في خسارة يعود الدين في فترات وبقوة، عودة الحسّ الديني تفتضي منا ألا نرى في الدين مجرد وهم يغرينا أو أفيونا يلهينا.

وذلك ما يسعى "E.Cassirer" كاسيرار" إلى إبرازه عندما بين أن العالم الإنساني تمكن من تحقيق نقلة نوعية مكنته من التميز نهائياً عما سواه حيث أصبح الإنسان قادراً على أن يكيف نفسه بحسب مقتضيات المحيط الذي يعيش فيه ذلك أن الإنسان عند كاسيرار أنتج لذاته واقعا خاصاً به، واقعا يقوم على وساطة الأنظمة الرمزية وقدرة الإنسان على الترميز أي على أن يتواصل بواسطة هذا الجهاز الرمزي الذي ينتج دلالات يشكل بواسطتها معنى العالم جعله يتميز عن بقية الكائنات ويتحدّد ككائن



بيوثقافي، وهكذا يمثل الدين في منظور "كاسيرار" منظومة رمزية تضطلع بوظيفة روحية وينتج من هذا المنطلق تشكيلات رمزية لا تختلف من حيث قيمة مصدرها الروحي عن رموز الذهن. فالدين من حيث هو صيرورة ديناميكية للترميز،

يحيل إذن إلى زاوية نظر روحية معينة، إذ هو محاولة لتحويل العالم السلبي، هو أحد الشروط التي تجعل تمثل الواقع الخارجي ممكنا، فالدين ليس عاملا مرضيا ذلك أن المقدس هو تجربة تنحو إلى أن تتواصل في تمثلات وفي مقولات ثقافية. وتجربة المقدس ليست أفيونا بل هي ضرب من المعانقة الروحانية للعالم مثلما عبر عن ذلك "مايار R.Meyer" إنها حس مؤسس لنوع من الحضور الغامض، لشيء يتجاوز الحدود المعتادة للتجربة الإنسانية. وإذا كانت تجربة المقدس مرتبطة بالقدرة الرمزية للإنسان والتي جعلت اللغة والفن وكل الرؤى الأخرى ممكنة، فإن كل تراجع للفكر الديني قد يؤدي إلى تراجع قدرة الإنسان على تجربة المقدس وإذا كان فرويد يدين الصبانية فهل أن تجاوز القلق الطفولي هو أمر هين؟ السنا دائما ذلك الطفل القلق الباحث عن وهم يعزيه؟ فالوهم الديني يبدو دائما ذا مستقبل زاهر شئنا أم أبينا، ففي مقابل ما يقدم الوهم الديني من تعزية للإنسان يجب على العقلانية التي تبناها فرويد أن تعترف بضعفها إن لم نقل بعدم قدرتها.

وهكذا نتبين أن الفكر المنطقي الفرويدي قد أحال العالم الرمزي للرؤية الدينية إلى العالم البدائي، إلى عالم الأطفال والشعراء بل إلى عالم المجانين والمرضى نافيا بذلك كل وظيفة إيجابية على الدين الذي غدا في منظوره السيكلوجي عصابا جماعيا في حين كان من باب الموضوعية على الأقل أخذ المقاربة السميولوجية بعين الاعتبار حتى نعترف بالوظيفة الروحية كوظيفة أساسية يضطلع بها الدين، خاصة وأن النظر في الدين كنظام رمزي يمكننا لا فقط من فهم الظاهرة الدينية بل أيضا كيفية استعمال الفكر العقلاني والفكر الإنساني بصورة عامة من جهة كون الفكر يتشكل بفضل الوظائف الرمزية التي ينتجها الإنسان مثلما أكد ذلك كاسيرار.<sup>(٢)</sup>